سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (٧)

وصية مودِّع

بقلم
حسين بن عودة العوايشة

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى للطبعة الجديدة

١٤٢٣ هـ

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

المقدّمة

إنَّ الحمْدَلله، نحمَدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أَنْفُسنا، وسيِّئات أعمالنا، من يَهدِه الله فَلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلل فلا هاديَ لهُ.

وأَشهَدُ أنْ لا إله إلا الله، وحدَه لا شريكَ له، وأَشْهَدُ أنَّ مُحمَّداً عَبدهُ ورَسولهُ.

﴿ يا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حقَّ تُقَاتِه ولاَ تَمُوتُنَّ إلا وَأَنتُم مُسْلمونَ ﴾[1].

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم من نفْسٍ وَاحدَةٍ وَخَلَقَ منْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ منْهُمَا رجَالاً كَثيراً ونساء واتَّقُوا اللهَ الَّذي تساءَلُونَ بِه والأَرْحَامَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقيباً ﴾[2].

---

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) النساء: ١.

﴿ يا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَديداً يُصْلِح لَكُم أَعْمَالَكُمْ ويَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[1].

أمَّا بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدْي هدْي محمّد، وشرّ الأمور مُحدثاتها، وكلَّ مُحدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النَّار.

تحمّس المخلصون، وأخلص المتحمّسون، ونظروا من بين أيدي الناس ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، فرأوا للشياطين آثارها وللقبائح اسودادها وللجراح دماءها، ورأوْا فُرقةً واختلافاً وشتاتاً وضياعاً وحيرة وقلقاً.

رأوْا آثار غياب حُكم الله ـ تعالى ـ في البيت والشارع والسوق.

رأوْها في المدرسة والمعهد والجامعة.

رأوْها في الكتاب والصحيفة والإعلام.

بل رأوها في المساجد خير البقاع؛ بما فيها من محدثات وبِدَع.

---

(١) الأحزاب: ٧٠، ٧١.

رأوْها بين صفوف الدعاة وطلاّب العِلم.

فتنافس المتنافسون، وتسابق المتسابقون لتطبيب الأمّة، وعلاج أحوالها، وتعدّدت الأدوية وتنوّعت العلاجات وكثُرت الاجتهادات؛ ولكنّ الحال هي الحال ـ اللهمّ إلا من جهود طيبة مخلصة مبعثَرة لا تفي بالأمر، ولا تُحقِّق المراد ـ.

... فهيا نبحث من بين توجيهات الرّحمة المهداة؛ لعلّنا نظفر بالمراد.

ولنقرأ وصية وداعه لأصحابه وأمّته؛ كما يرويها عنه العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ.

لقد وعظ رسول الله ﷺ أصحابه موعظةً وجِلت منها قلوبهم ـ رضي الله عنهم ـ وذرفَت منها عيونهم، ثمّ تلا عليهم ﷺ الوصيّة.

إنّها وصيّة هذا الزمان ـ كما أنّها وصيّة كلّ زمان ـ.

إنّها وصيّةٌ لزمنِ التناحر والاختلاف والشّقاق.

إنّها وصيّةٌ لزمنٍ رضي المسلمون فيه أن يتفرّقوا أحزاباً وجماعات، يقول فيه كل حزب: نحن على الحقّ والصواب وخطِيء غيرنا الطريق.

كلٌّ يعرض بضاعته ليجذب المسلمين نحوه ويدفعهم عن الأحزاب والجماعات الأخرى، متّهماً غيره أنه لم يفهم الإسلام فهماً شاملاً، ولم يدْعُ له على النحو الذي يُرضي الله ـ سبحانه وتعالى ـ.إنّنا في زمنٍ أمسّ ما تكون فيه حاجتنا إلى تدبُّر وصيّة الرسول ﷺ.

إننا في حال أشدّ ما يتطلّب التفكّر في وصيّة وداع رسول الله ﷺ أصحابه وأمّته.

لذلك وجدتني أنشُط في كتابة هذه الرسالة؛ لعلّها تلقى آذاناً صاغية، وقلوباً خاشعة، ونفوساً مستجيبة تتفاعل معها، لتحاول قدْر الاستطاعة رأب الصدْع ولأم الجراح.

أسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وألا يجعل لأحد منه شيئاً، وأن ينفع بي أمّة الإسلام، ويجعلني مفتاح خير مغلاق شرّ، إنّه على كل شيء قدير.

حسين بن عودة العوايشة

ماذا بعد موت النّبيّ ﷺ ؟

مات الرسول ﷺ فدمعَت الأعين، وحزنت القلوب، وتلوّعت الأفئدة، وأظلمت الدنيا، وأنكر المؤمنون أنفسهم.

مات الحبيب الغالي العزيز المربّي المعلّم الرؤوف الرحيم بالمؤمنين.

شأنُ من يفقد العزيز الغالي؛ أن يُروِّيَ الفؤاد بالذكريات...

هناك كان يجلس.

وهناك كان يقف.

وكان يقول كذا وكذا.

وكان يفعل كذا وكذا.

شأن من يفقد الحبيب أن يتأمّل كلماتٍ قالها، وعبارات نطق بها.

شأنه أن يتدبّر الوصيّة ويُقبلَ عليها بكلّيته يُمضي ما طلب الفقيد بإخلاص وصدق.

يتأمّل الكلمات ويجعل حروفها عملاً.

فيا من جُرحت قلوبكم بموت نبيكم ﷺ سارعوا إلى وصيّته.

أَقبِلوا عليها بقلوب مُنكسِرة وأفئدة خاشعة ذليلة.

اقرؤوا عن العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ قوله: «وعظَنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفَت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنّها موعظةُ مودع فأوصِنا قال:

«أوصيكم بتقوى الله، والسّمع والطاعة، وإنْ تأمّر عليكم عبد [حبشيّ] وإنّه من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديّين، عَضُّوا عليها بالنواجذ[1] وإيّاكم ومُحدثات الأمور، فإنّ كُلّ بدعة ضلالة»[2].

---

(١) أي: الزموا السنّة واحرصوا عليها؛ كما يلزم العاضّ على الشيء بنواجذه؛ مخافة ذَهابه وتفلّته، والنواجذ: الأنياب، وقيل: الأضراس.

(٢) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٥١)، والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢١٥٧)، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٠) وغيرهم. وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤) =

وفي رواية: «فقُلنا يا رسول الله! إنّ هذه لموعظة مودِّع، فماذا تعهد إلينا؟ قال[1]: «قد تركتكم على البيضاء، ليلُها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يَعشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتُم من سُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديّين، عَضّوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة، وإنْ عبداً حبشياً، فإنما المؤمن كالجمل الأنِف[2]، حيثما قيد انقاد».

= و «كتاب السنّة» (٥٤) لابن أبي عاصم بتحقيق شيخنا ـ رحمه الله ـ.

وفي رواية للنسائي والبيهقي في «الأسماء والصفات»: «وكلّ ضلالة في النّار»، بإسناد صحيح، كما في «الأجوبة النافعة» (ص٥٤٥) و «إصلاح المساجد» (ص١١).

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (٤١).

(٢) الأنِف: قال في «النهاية»: «أي: المأنوف، وهو الذي عقر الخشاش أنفه، فهو لا يمتنع على قائده للوجع الذي به، وقيل: الأنف الذّلول».

والخِشاش: ما يُدخل في عظم أنف البعير من خشب. «المحيط».

قيمة الوصيّة

إنّها وصيّة مودّع حبيبٍ.

كيف يكون شعور الأمّ الرؤوم وهي تودّع ابنها الغالي؟

وكيف يكون إحساس الأب الحاني وهو يودّع فلذة كبِده؟

إنّ الموقف لأعظم، والأمر لأشدّ.

إنّ رسول الله ﷺ يُودّع أصحابه وأمّته، فماذا سيقول لهم؟

أيُبيِّن لهم أحكاماً فقهية؟

أم يوضّح لهم أمراً من أمور العقيدة لم يبيّنه من قبل، أو قضيةً خُلُقيةً لم يكن قد تحدَّث بها؟

الأمر أشدُّ من ذلك!

لقد كَمَل الدين، وتمّت النعمة، فلا بُدَّ أن تكون هذه الوصيةُ جامعةَ الوصايا، وقُلْ إنْ شئت: أمّ الوصايا.

إنّها تجمع كل خير وتشمل كلّ طيب.

إنّها تُحذّر من كلّ شرّ وسوء.

إنّها تُعطيك الإسلام والإيمان والإحسان في عباراتها الوجيزة.

إنّها تُخرجك من الحيرة والقلق، وتدلّك على سبيل الرّشاد.

ولا عجب؛ فقد أوتي ﷺ جوامع الكَلِم.

فهيا يا ساعياً للخير أقْبِل على هذا المورد العذب، لترتشف من المعين الصافي والنبع الرقراق:

«وعظَنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة».

إنّها استجابة لأمر الله، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وعِظهم وقُلْ لهم في أنفسهم قولاً بليغاً**﴾[1]، وفي قوله سبحانه أيضاً: ﴿**ادْعُ إلى سبيل ربِّك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾[2].

قال في «جامع العلوم والحكم»[3]: «والبلاغة في

---

(١) النساء: ٦٣.

(٢) النحل: ١٢٥.

(٣) تحت الحديث الثامن والعشرين.

الموعظة مستحسنة؛ لأنّها أقرب إلى قَبول القلوب واستجلابها، والبلاغة: هي التوصّل إلى إفهام المعاني المقصودة، وإيصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالّة عليها، وأفصحها وأحلاها للأسماع، وأوقعها في القلوب، وكان ﷺ يقصر خطبته ولا يُطيلها؛ بل كان يُبلغ ويوجز».

وفي «صحيح مسلم»[1] عن جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنتُ أصلّي مع رسول الله ﷺ فكانت صلاته قصداً[2]، وخطبته قصداً».

وخرَّج مسلم[3] من حديث أبي وائل قال: «خطبَنا عمّار، فأوجز وأبلَغ، فلمّا نزل قُلنا: يا أبا اليقظان! لقد أبلغتَ وأوجزتَ، فلو كنت تنفسْتَ![4] فقال: إني سمعت

---

(١) برقم: (٨٦٦).

(٢) القصد من الأمور: الوسط بين الطرفين، والاعتدال فيه، وفي «فيض القدير»: قصْد كل شيء تحسينه.

(٣) برقم: (٨٦٩).

(٤) أي: أطلْت، وأصله أنّ المتكلم إذا تنفَّس استأنف القول وسهلت عليه الإطالة. «النهاية».

رسول الله ﷺ يقول: «إنّ طول صلاة الرجل وقِصَر خطبته مئنّة[1] من فقهه، فأطيلوا الصلاة واقصُروا الخطبة، وإنّ من البيان سحراً».

وعن أبي ظبية أنّ عمرو بن العاص قال يوماً ـ وقام رجل فأكثَر القول ـ فقال عمرو: لو قصد في قوله لكان خيراً له؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد رأيت ـ أو أُمِرْت ـ أن أتجوّز في القول، فإنّ الجواز هو خير»[2].

ها نحن قد شَبِعْنا الكلام المعسّل والخُطب الرنّانة، ولكن أين نحن الآن؟ وما موقعنا من الأمم؟

إنّنا في زمن كثُرت خطباؤه وقلّت فقهاؤه؛ فواحزناه.

إنّنا في زمن كثُر فيه القول، وقلّ الفِعل، فواحسرتاه!

«وجِلت منها القلوب، وذرفت منها العيون».

قلوب وجِلة خاشعة، وعيون باكية دامعة.

---

(١) أي: علامة يُتحقّق من فقهه، وحقيقتها مكانٌ لقولِ القائل: إنّه فقيه. «فيض القدير».

(٢) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤١٨٧).

إنّ هذا الوجل ليدلّ على الإيمان؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إنّما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجِلت قلوبهم**﴾[1].

هذه الأعين التي في مِثلها قال سبحانه وـ تعالى ـ: ﴿**وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ممّا عرفوا من الحقّ**﴾[2].

وهذا هو شأن المؤمنين الصادقين الخاشعين: ﴿**ويخرُّون للأذقان يَبْكون ويزيدُهم خُشُوعاً**﴾[3].

قلوب تنتفع بالمواعظ والرقائق، ولا يخرُّون عليها صُمَّاً وعمياناً.

ذلك لأنّهم قوم عالمون عاملون مؤمنون صادقون قانتون مُستغفرون، أفئدتهم مِثل أفئدة الطير.

وكان من ثمرة هذه الشفافية والرّقة والوجل والدموع؛ أن طلبوا الوصية فقالوا: «كأنها موعظة مُودّع فأوصِنا»[4].

---

(١) الأنفال: ٢.

(٢) المائدة: ٨٣.

(٣) الإسراء: ١٠٩.

(٤) قال في «جامع العلوم والحكم»: «وقولهم: يا رسول الله =

لعلّهم اشتموا أنّ أحبَّ الناس إليهم سيودّعهم!

ولا غرابة في ذلك فهم سادة الفقهاء، وقادة العلماء.

لم يكتفوا بما تقدّم من مواعظ ورقائق وفوائد وأحكام وخطب؛ ولكنهم أرادوا المزيد.

إنّهم طلاب علمٍ لا يشبعون.

إنّهم طلاب خيرٍ منهومون.

إنّهم يريدون وصيّة جامعة بعد كلّ خيرٍ سمعوه من رسول الله ﷺ، ليُحسنوا العمل بعدَه على منهجه وطريقه.

أوصيكم بتقوى الله

اتبعوا أوامر الله ـ تعالى ـ واجتنبوا نواهيه.

راقبوه بالسرّ والعلن.

= كأنّها موعظة مودّع فأوصنا» يدلّ على أنّه كان ﷺ قد أبلغ في تلك الموعظة ما لم يُبلغ في غيرها، فلذلك فهِمُوا أنّها موعظة مودّع، فإنّ المودّع يستقصي ما لا يستقصي غيره في القول والفعل، ولذلك أمر النّبيّ ﷺ أن يُصلي صلاة مودّع، لأنّه من استشعر أنّه مودّع بصلاته أتقنها على أكمل وجوهها..».

اجتنبوا الهوى سبب الشرور والنّار.

زكّوا أنفسكم.

اتّقوا النّار بالأعمال الصالحة النافعة.

إنْ تكالبت عليكم الدنيا بجمالها وسِحْرها، والحرام بفتنته، والذهبُ ببريقه، والأشغال بمغرياتها، فتذكّروا قوله ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله».

إن أردتم الخلاص من الضيق والكرب والبلاء، وأن تُرزقوا الرزق الحلال، ويبسط لكم فيه فاتّقوا الله، ﴿**ومن يتقِ الله يجعل له مخْرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾[1].

إن أردتم أن يجعل لكم من أمركم يُسراً وتخلصوا من العُسر، فاتّقوا الله.

﴿**ومن يتقِ الله يجعل له من أمره يُسْراً**﴾[2].

إن أردتم أن تتعلّموا سبيل النجاة والفوز والتقوى، فاتّقوا الله.

---

(١) الطلاق: ٢، ٣.

(٢) الطلاق: ٤.

﴿ واتقوا الله ويُعلّمكم الله والله بكلّ شيءٍ عليم ﴾[1].

إن أردتم ـ أيها المسلمون ـ أن تكونوا السّادة والقادة وتكون لكم الرّيادة في كلّ العلوم والمجالات: « فاتقوا الله ».

﴿ وعَدَ اللهُ الّذين آمنوا منْكُم وعملوا الصّالحات ليسْتَخْلفَنَّهُم في الأرض كما اسْتَخْلَفَ الذين من قَبْلِهم وليُمكّنَنّ لهم دينهم الذي ارتضى لهُم وليُبَدِّلنَّهُم من بعد خوفهم أمْناً يعبدونَني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هُم الفاسقون ﴾[2].

إذا أردتم أن تكونوا أكرم الناس فاتّقوا الله.

﴿ إنّ أكْرمكم عند الله أتقاكم ﴾[3].

إذا أردتم العيش الآمن والحياة الهنيئة فعليكم بتقوى الله.

أليس الملل وضنك العيش من قلة التقوى؟

أليست الجرائم التي تملأ المجتمع وتهدّد الأمن والطمأنينة

---

(١) البقرة: ٢٨٢.

(٢) النور: ٥٥.

(٣) الحجرات: ١٣.

بسبب قلّة التقوى؟

تقوى الله توجب عليك قبول الحق؛ ولو جاءك ممن هو دونك في الجنس أو العِرق أو المال أو المنصب أو الجاه أو السنّ.

«أوصيكم بتقوى الله».

كلمة جامعة؛ تصلح لكلّ زمان ومكان.

كلمةٌ تصلُح للذكر والأنثى، والغني الفقير، والأبيض والأسود.

كلمة تُصلِح الراعي والرعيّة.

كلمة تُسعد الفرد والمجتمع والأمة في الدّارَيْن إذا عملوا بمقتضاها.

... والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبدٌ حبشي.

وهذا كقوله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمِل عليكم عبدٌ حبشيّ كأنّ رأسه زبيبة»[1].

وفي الحديث: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فلْيصبر،

---

(١) أخرجه البخاري: ٧١٤٢.

فإنّه ليس أحد يُفارق الجماعة شبراً فيموت، إلاّ مات ميتة جاهلية»[1].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أُمِر بمعصية؛ فلا سمْع ولا طاعة»[2].

وإن تأمّر عليكم عبدٌ حبشي.

فلا ينبغي أن يكون العِرق مانعاً لك عن السمع وقبول الحقّ.

ولا يجوز أن يكون اللون عائقاً لك عن الطاعة وأخذ الصواب.

لا يحولَنّ بينك وبين الحقّ مظهريّة جوفاء ولا شكليّة خاوية.

ولنحذر من مخالفة هذا؛ لأن من ورائه فتناً شديدة

---

(١) أخرجه البخاري: ٧١٤٣.

(٢) أخرجه البخاري: ٧١٤٤، وقد يستدلُّ مستدلٌّ بهذه النصوص؛ لتحزّب ما، أو تكتّل مُعيّن، ولا وجه له فإن في هذا زيادة في الفُرقة والشتات بين المسلمين، فنسأل الله ـ تعالى ـ الهداية.

ومصائب عظيمة.

وإنّه من يعش منكم فيسرى اختلافاً كثيراً.

وها نحن نعيش في الاختلاف الكثير.

اختلاف في العقيدة والفقه والسياسة والإمارة، بل وفي القلوب.

لقد كانت جماعةً واحدةً فأصبحت جماعات، وكانت دعوةً فأضحت دعوات.

ما أكثر الكتب واختلافها!

إن المسلم لا يدري ماذا يأخذ وماذا يدَع! ومِن أين يبدأ وكيف ينتهي!

إنّ الاختلاف يؤدّي إلى هلاك الأمّة، قال سبحانه: ﴿**ولا تَنازَعُوا فتفشلوا وتذهبَ ريحُكم**[1]﴾[2].

وقال ﷺ: «لا تختلفوا فإنّ من كان قبلكم اختلفوا

---

(١) قوّتكم وحدّتكم وما كنتم فيه من الإقبال. «تفسير ابن كثير».

(٢) الأنفال: ٤٦.

فهلكوا»[1].

ها هي الأمم قد تداعت علينا كما تداعى الأكلة على قصعتها وآنيتها، وليس هذا من قلّة عدد، ولكنّه الوهن.

وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكَلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلّةٍ نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنّكم غثاء كغثاء السيل.

ولينزعنّ الله من صدور عدّوكم المهابة منكم، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حبّ الدنيا وكراهية الموت»[2].

... فسيرى اختلافاً كثيراً.

لماذا الاختلاف الكثير؟

لأنّهم اعتمدوا قوانين البشر ونُظمهم، وتركوا ما أُنزِل إليهم من ربهم ـ سبحانه ـ.

---

(١) أخرجه البخاري: ٢٤١٠.

(٢) أخرجه أبو داود وغيره، وانظر «الصحيحة» (٩٥٨).

لأنّهم قدَّموا كلام زيد وعمرو على كلام الله ـ تعالى ـ وكلام رسوله ﷺ.

إنّ سبب الاختلاف الكثير هو التلقّي من غير الله ـ سبحانه ـ.

﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[1].

فسبب الاختلاف؛ هو التنكُّب عن كتاب الله ـ تعالى ـ وسّنة رسوله ﷺ، فما كان من عند الله ـ سبحانه ـ فلا اختلاف فيه، وما كان من عند غير الله ففيه الاختلاف.

فما العلاج؟

«فعليكم بسنّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديّين، عَضُّوا عليها بالنواجذ».

«عليكم بسنّتي»: الزموا منهجي وسبيلي، لأنها النّور والشفاء والرحمة، فسَّرَت القرآن العظيم، واسْتقت من يَنبوعه، وأنّى لمن تلقّى من الكتاب والسّنة أن يضلّ أو

---

(١) النساء: ٨٢.

يشقى؛ ورسول الله ﷺ يقول: «تركتُ فيكم أمرين، لن تضلّوا ما تمسكْتُم بهما: كتاب الله وسنّة رسوله»[1].

ويُروى عن أبي العالية أنّه قال: «عليكم بالأمر الأوّل الذي كانوا عليه قبل أن يفترقوا».

«فعليكم بسنّتي»: ولكن كيف نعرِف سُنّته ﷺ؟

لا بُدّ من منهاج التحقيق والتمحيص والسَّير وراء أهل الحديث، وإلا أُدخلت سُنن البشر في سُنَّته ﷺ، فأضحى الدين أهواءً، والأهواء ديناً، وحُكِّم العقل القاصر، وعطّلت شريعة الله ـ تعالى ـ.

وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ، لا يضرُّهم من خَذَلهم، حتى يأتي أمرُ الله وهم كذلك»[2].

وقد بيّن جمْعٌ من العلماء أنّ هذه الطائفة هم أصحاب

---

(١) رواه مالك مُرسلاً، والحاكم من حديث ابن عباس، وإسناده حسن؛ كما قال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «التوسل أنواعه وأحكامه» (ص١٣).

(٢) أخرجه مسلم: ١٩٢٠، وغيره.

الحديث. وقد ذكَر شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ مَن ذكَر ذلك في «السلسلة الصحيحة» (١ / ٥٤١)، وهم:

١ـ عبدالله بن المبارك... فقد قال في الحديث السابق: هم عندي أصحاب الحديث».

٢ـ علي بن المديني، وروى الخطيب أيضاً من طريق الترمذّي وهذا في سننه (٢ / ٣٠) وقد ساق الحديث من رواية المزني المتقدمّة[1] (رقم٥)، ثم قال: «قال محمّد بن إسماعيل (هو البخاري) قال علي بن المديني: هم أصحاب الحديث».

٣ـ أحمد بن حنبل، وقد سُئل عن معنى هذا الحديث فقال: «إنْ لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث، فلا أدري من هم».

٤ـ أحمد بن سنان الثقة الحافظ، قال: «هم أهل العلم وأصحاب الآثار».

٥ـ البخاري، محمد بن إسماعيل، روى الخطيب عن

---

(١) أوردها شيخنا ـ رحمه الله ـ (ص٥٣٩)، وقال: «... في «المسند» (٣/ ٤٣٦ و ٥/ ٣٤) بسند صحيح وصحّحه الترمذي».

إسحاق بن أحمد قال: ثنا محمّد بن إسماعيل البخاري ـ وذكر حديث موسى بن عقبة عن أبي الزبير عن جابر عن النّبيّ ﷺ: «لا تزال طائفة من أمّتي» فقال البخاري: يعني أصحاب الحديث. وقال في «صحيحه» وقد علّق الحديث وجعله باباً: «وهم أهل العلم» ولا منافاة بينه وبين ما قبله كما هو ظاهر، لأنّ أهل العلم هم أهل الحديث، وكلّما كان المرء أعلم بالحديث؛ كان أعلم في العلم ممن هو دونه في الحديث كما لا يخفى. وقال في كتابه «خلق أفعال العباد» (ص٧٧ ـ طبع الهند) ـ وقد ذكر بسنده حديث أبي سعيد الخدري في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وكذلك جعلناكم أُمّةً وسطاً لتكونُوا شُهداء على النّاس**﴾ ـ قال البخاري: «هم الطائفة التي قال النّبيّ ﷺ: ...» فذكر الحديث[1].

---

(١) ثم ذكر شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ ما تيسَّر من فضائل أهل الحديث، وذكر أيضاً قول الخطيب البغدادي ـ رحمه الله تعالى ـ في مقدّمة كتاب «شرف أصحاب الحديث» انتصاراً لهم وردّاً على من خالفهم، ثمّ ذكَر ـ رحمه الله ـ بعض الأبواب مقتصراً على أهمّها وأمسّها بالموضوع وتتميماً للفائدة، ثمّ ختَم شيخنا كلمته بذكر شهادة عظيمة لأهل الحديث من عالمٍ من كبار علماء الحنفية، وهو =

لقد ترك رسول الله ﷺ أمّته على النّور والهُدى، تركها على مِثل البيضاء؛ ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلاّ هالك، لا عذر له ولا حُجّة، كما في قوله ﷺ: «إني قد تركْتكم على مِثل البيضاء[1]: ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك»[2].

وكأنّ في هذا بياناً لقوله ـ تعالى ـ: ﴿**وأنَّ هذا صِراطي مُستقيماً فاتَّبِعُوه ولا تتّبعوا السُّبُل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون**﴾[3].

عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كنّا جلوساً عند النّبيّ ﷺ فخَطّ خطّاً هكذا أمامه فقال: هذا

= أبو الحسنات اللكنوي ـ رحمه الله ـ فافاد بذلك وأجاد.

وإن شئت تفصيلاً فانظر: «الصحيحة» في التعليق على الحديث المشار إليه برقم (٢٧٠).

(١) أي: على حجّة واضحة ظاهرة قويّة ساطعة بيّنة. والليلة البيضاء: هي التي يطلع فيها القمر من أوّلها إلى آخرها.

(٢) صحيح بطرقه وشواهده، كما في «كتاب السّنة» لابن أبي عاصم (٤٧، ٤٨، ٤٩).

(٣) الأنعام: ١٥٣.

سبيل الله ـ عزّ وجلّ ـ وخطّ خطّاً عن يمينه، وخطّ خطّاً عن شماله، وقال: هذه سُبُل الشيطان، ثمّ وضَع يده في الخطّ الأوسط ثمّ تلا هذه الآية: ﴿**وأنّ هذا صراطي مُستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعُوا السُّبُل فَتَفرَّق بكم عن سبيله ذلِكم وصّاكُم به لعلّكُم تتّقون**﴾[1]»[2].

«عليكم بسنّتي»:

ولم يقُل عليكم بالشيخ الفلاني والمربّي الفلاني والعالم الفلاني، فحذار من التعصّب لأيٍّ من هؤلاء، ولنأخذ منهم ما يُبلغنا السّنة والحقّ والصواب.

«وسنّة الخلفاء الراشدين المهديّين»:

لا بُدّ إذن أن نفهم السنّة النبويّة كما فَهِمَها الخلفاء الراشدون؛ أقرب الناس من النّبيّ ﷺ وأطهرهم جَناناً، وأصدقهم إيماناً، وأكثرهم إحساناً، وأشدّهم ملازمة للنّبيّ ﷺ، إنهم يعاينون الأمور ونحن نسمعها أخباراً «وليس

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) صحيح بالمتابعة، وانظر «كتاب السّنة» لابن أبي عاصم، برقم (١٦، ١٧).

الخبر كالمعاينة»[1].

لقد وصفَهم رسول الله ﷺ بالراشدين المهديّين، فهل من أحد بعد أصحاب النّبيّ ﷺ وُصف بهذا الوصف فنتّبعه؟!

لا يجوز الاعتماد على القرآن استقلالاً

إنّ الاعتماد على القرآن وحده دون السّنة النّبوية ضلال كبير، ونحن نرى أنّ أكثر الفرق الضالّة تدّعي التمسُّك بكتاب الله ـ تعالى ـ معتمدة التأويل والتحريف كيفما جمحت بها الأهواء.

فهل في كتاب الله تفصيلٌ للصلاة أو الزكاة أو الحج أو الأذكار؟ فلا بدّ من فهْم كتاب الله ـ تعالى ـ على ضوء السنّة النبوية[2].

وليعلم المسلم أنّ ما أحلّ رسول الله ﷺ كما أحلّ الله ـ تعالى ـ وما حرّم رسول الله ﷺ كما حرّم الله ـ عزّ وجلّ ـ.

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني والخطيب وغيرهم بسند صحيح، كما في «تخريج العقيدة الطحاوية» (٤٠١).

(٢) لشيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ رسالة نافعة طيبة هامّة بعنوان «منزلة السنة في الإسلام وبيان أنه لا يُستغنى عنها بالقرآن».

عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل عسى رجلٌ يبلغه الحديث عنّي؛ وهو متّكىء على أريكته، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدْنا فيه حراماً حرّمناه وإنّ ما حرّم رسول الله ﷺ كما حرّم الله»[1].

وهذا يذكّرنا بالحوار الذي دار بين عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وأمّ يعقوب، كما ورد في حديث علقمة قال: «لَعَن عبدالله الواشمات[2] والمتنمّصات[3] والمتفلّجات[4] للحُسن المغيّرات خلْقَ الله.

---

(١) أخرجه الترمذي واللفظ له «صحيح سنن الترمذي» (٢١٤٦)، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (١٢) والدارمي وغيرهم.

(٢) الوشم: أن يُفرز الجلد بإبرة، ثمّ يُحشى بكُحل أو نيل، فيزرقّ أثرُه أو يخضر. «النهاية».

(٣) النّماص: إزالة شعر الوجه ونتفه، والمتنمّصة: التي تأمر من يفعل بها ذلك.

(٤) جمع متفلّجة: وهي التي تطلب الفلج أو تصنعه، والفلج انفراج ما بين الثنيّتين، والتفلّج: أن يفرج بين المتلاصقين بالمبرد ونحوه، وهو مختصّ عادة بالثنايا والرباعيّات... «الفتح».

فقالت أمّ يعقوب: ما هذا؟

قال عبدالله: وما لي لا ألعن من لعَن رسولُ الله ﷺ وفي كتاب الله!

قالت: والله لقد قرأتُ ما بين اللوحين فما وجدته. فقال: والله لئن قرأتيه لقد وجدتيه ﴿**وما آتاكم الرسولُ فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾[1]»[2].

فإنّ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ لعَن الواشمات والمتنمّصات والمتفلّجات للحُسن.

ولكنّ أم يعقوب لم تُقرّه على هذا اللعن، فكان جوابه ـ رضي الله عنه ـ أنّه لعَن من لعَنه رسول الله ﷺ، وقد أَخَذ هذا اللّعن من كتاب الله العظيم.

بيْد أنها أبدت اعتراضاً شديداً على قوله؛ لأنها لم تقرأه في كتاب الله ـ تعالى ـ فكان جوابه ـ رضي الله عنه ـ: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه. أما قرأت: ﴿**وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾؟!

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) أخرجه البخاري: ٥٩٣٩، ومسلم: ٢١٢٥.

فإنّ رسول الله ﷺ قد لعن هذه الأصناف، وربّنا ـ سبحانه ـ يأمر باتباع النّبيّ ﷺ فما آتانا أخذْنا، وما نهانا عنه انتهينا عنه، ومن لعَنه لعَناه، وبذلك فإنّ لعْن هذه الأصناف نابعٌ من كتاب الله ـ تعالى ـ أصلاً.

وبهذا نعلم أنّ اتّباع أوامر الرّسول ﷺ اتباعٌ لأوامر القرآن العظيم، واجتناب نواهي الرسول ﷺ أيضاً اجتناب لنواهي القرآن الكريم. وما أحلّ رسول الله ﷺ كما أحلّ الله ـ سبحانه ـ وما حرّم رسول الله كما حرّم ـ عزّ وجلّ ـ.

وبهذا ينبغي أن لا نفرّق بين كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ وسنّة رسوله ﷺ.

من أخَذَ عن الصحابة فقد أخَذَ عن القرآن الكريم

لقد أخَذ الصحابة عن الخلفاء الأربعة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وكانوا أحرص الناس على الخير، فقد شهد الله ـ تعالى ـ لهم بالإيمان، وحذّر من اتّباع غير سبيلهم.

قال ـ سبحانه ـ: ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيّن له الهدى ويتّبع غير سبيل المؤمنين نُولّه ما تولّى ونُصْلِه**

جهنّم وساءت مصيراً ﴾[1].

وفي الحديث: «ألا إنّ من قبلكم من أهل الكتاب؛ افترقوا على ثنتين وسبعين ملّة، وإنّ هذه الملّة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النّار، وواحدة في الجنّة، وهي الجماعة»[2].

وفي رواية: «ما أنا عليه وأصحابي»[3].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لا تسبّوا أصحاب محمّد؛ فلمقام أحدهم ساعة؛ خير من عمل أحدكم عُمُره»[4].

(١) النساء: ١١٥.

(٢) أخرجه أبو داود والدارمي وأحمد وغيرهم، وانظر «الصحيحة» (٢٠٤).

(٣) حسن بطرقه وشواهده، وتفصيله في «الصحيحة» (٢٠٣، ٢٠٤) (التحقيق الثاني).

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في «كتاب السّنة»، ورجال إسناده ثقات رجال الشيخين غير نسير بن ذعلوق، وقد وثّقه جمْع من الأئمة، وروى عنه جمع من الثقات، كما ذكَر ذلك شيخنا ـ رحمه الله ـ في الكتاب الآنف الذكر، برقم (١٠٠٦) (التحقيق الثاني)، وفي كتابه «تيسير انتفاع الخلاّن بكتاب ثقات ابن حبّان».

بعد أن فهِمْنا أنّ الصحابة ـ أخذوا من الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ نعلم أنّ اتباع منهاج الصحابة اتباعٌ لمنهاج الخلفاء، واتّباعٌ للسّنة كذلك، واتّباع السّنة اتّباعٌ للقرآن العظيم.

إذا عرفْنا هذا التدّرج والتسلسل؛ علمْنا إذن أنّ من أخَذَ عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فقد أخَذ عن الله ـ سبحانه ـ ومن رفض منهاج الصحابة فقد رفَضَ كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ.

ومن هنا نفهم سرّ ضلال وزيغ من كفَّر الصحابة ـ عياذاً بالله ـ إلا ثلاثة منهم.

فإنّك ترى الذين كفّروا الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ هم أنفسهم الذين لم يؤمنوا بالقرآن ولا السّنّة، فلم تعدْ لديهم ضوابط صحيحة تحكمهم.

وما ضلّ الضّالون وانحرف المُنحرفون، إلا لأنهم لم يتقيّدوا بمنهاج السلف الصالح، ذلك لأنهم أطلقوا لعقولهم العنان في فهم الكتاب والسّنّة، وبذلك تعدّدت المناهج والأفكار والدعوات والأحزاب، والكلّ يقول: نحن على الكتاب والسّنّة، وما هم بصادقين ـ مع الأسف ـ.

وكلٌّ يدّعي وصْلاً بليلى وليلى لا تُقرُّ لهم بذاك

أهي سنَّة واحدة أم سُنّتان

إنها سنّة واحدة، بدليل قوله ﷺ: «عَضّوا عليها بالنّواجذ».

لقد قال عليه الصلاة والسلام: «عضّوا عليها»: فالضمير: «ها» يدّل على المفرد - ولم يقُلْ - عليه والصلاة السلام -: «عضّوا عليهما» أي: على سنّتين، بل قال: «عضوا عليها»، فهي سنّة واحدة، إذ العمل بسنّة الخلفاء الراشدين عملٌ بسنّة النّبيّ ﷺ، فليس للخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - سنّةٌ غير سنّة النّبيّ ﷺ.

قال الشيخ القاري - رحمه الله - في «المرقاة» (١/ ١٩٩) في قوله ﷺ: «فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين»: «فإنهم لم يعملوا إلا بسنّتي، فالإضافة إليهم: إمّا لعملهم بها، أو لاستنباطهم واختيارهم إيّاها»[1].

---

(١) ذكرها عنه شيخنا الألباني - رحمه الله - في «الصحيحة» (٤/ ٣٦١) برقم (١٧٦١).

«عضّوا عليها بالنواجذ»: كناية عن شدّة التمسّك بها.

إنّه أمرٌ لحريٌّ بالتمسُّك؛ لتحقيق الهدى واجتناب الهوى والضلال؛ فليس هناك من سبيلٍ إلاّ الالتزام بسنّة النّبيّ ﷺ، وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين، لا سيما وقد كثرت سُنن غير النّبيّ ﷺ وتخبَّط الناس في الأهواء والشهوات.

لا بُدّ من بذْل الجهد في التمسّك بالسّنة، مخافة الضياع والضلال؛ أشدّ مما يحافظ الرجال في الصحارى والمفازات على شرابهم وطعامهم، لأنّ في الشراب والطعام حياة الأبدان، وفي السّنة حياة الجَنان.

«وإيّاكم ومحدثات الأمور».

لم يكْتفِ النّبيّ ﷺ بالأمر باتّباع سنته ﷺ وسنّة الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ بل نهى عن مُحدثات الأمور، لأنّ في إحياء المُحدثات والبدع إماتة للسنة. فما من بدعة تُحدَث؛ إلا وتميت سنّة ـ عياذاً بالله تعالى ـ.

ولعلّ كلمة «محدثات» تُشعر بالشيء الحديث الجديد، ولقد زُيّن للنفوس كلّ جديد.

أما اللذّة في الدين؛ ففي التمّسك بالأمر العتيق؛ كما قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم، عليكم بالأمر العتيق».

وصحّ عنه ـ رضي الله عنه ـ موقوفاً؛ وهو مرفوع إلى النّبيّ ﷺ حُكماً[1]، أنه قال: «كيف أنتم إذا لبسَتْكُم فتنة يهرم فيها الكبير، ويربو فيها الصغير، ويتّخذها الناس سنّة، إذا تُرك منها شيء قيل: تُركت السّنّة؟ قالوا: ومتى ذاك؟ قال: إذا ذهبت علماؤكم، وكثُرت قرّاؤكم، وقلّت فقهاؤكم، وكثُرت أمراؤكم، وقلّت أمناؤكم، والتُمست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّه لغير الدين»[2].

ورضي الله عن حذيفة صاحب سرّ رسول الله ﷺ إذ قال: «كلّ عبادة لم يتعبّدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبَّدوها».

ورحم الله التابعي الجليل حسان بن عطية المحاربي إذ قال:

---

(١) قاله شيخنا ـ رحمه الله ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ تعالى ـ.

(٢) أخرجه الدارمي (١/ ٦٤) بإسنادين، أحدهما صحيح والآخر حسن، والحاكم (٤/ ٥١٤) وغيرهما، وانظر «قيام رمضان» لشيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ.

« ما ابتدع قوم بدعة في دينهم؛ إلا نزع الله من سنتهم مِثلها، ثمّ لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة »[1].

ما هو موقفنا من البدع إذا كثُر الاختلاف وعَظُم؟

يجيب على هذا كثير من الدعاة فيقولون: دعْك من ذلك فليس هذا أوانه، بل إنّهم يقولون: الحديث عن البدع يفرّق المسلمين ويشتّتهم.

وأمّا رسول الله ﷺ فقد أوصانا حين نُبتلى بالاختلاف الكثير أن نتجنب البدع بقوله: «إنّه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً...» إلى أن قال: «وإيّاكم ومُحدثات الأمور».

فهل يسوغ الاجتهاد في موارد النصوص ـ وهم ينهون عنه وينأوْن ـ بادعائهم أنّ الحديث عن البدع يفرّق ويُشتّت المسلمين؟

فلا تنس إذاً ـ يرحمك الله ـ أنّ النّبيّ ﷺ جعل اجتناب

---

(١) أخرجه الدارمي وإسناده صحيح كما قال شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ في «المشكاة» (١٨٨)، وقال: وقد رُوي من قول أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أخرجه أبو العباس الأصمّ في «حديثه».

البدع من أهم الأمور في جامعة الوصايا التي أفاد بها أمّته؛ وحرص على مصلحتهم فيها أشدّ الحرص.

ثم إنّ البدع أشكال وألوان، فهناك بدع في العقيدة والتوحيد والعبادة والسلوك، فعن أيٍّ البدع نغض الطرف ونُغمض القلوب؟ عن بدع العقيدة؟؟ فصفاء العقيدة لا شكَّ أنّه مُقدّم على كلّ أمر، لأننا ما قاتلْنا الكفرة والملاحدة إلاّ لخراب عقيدتهم وخوائها. أم عن بدع العبادات ورسول الله ﷺ يقول: «وكلّ بدعة ضلالة»!

أفنجمع الأمّة على الضلالة وقد قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله قد أجار أمّتي من أن تجتمع على ضلالة»[1].

إنّ عدم امتثال الناس لأوامر الله ـ تعالى ـ يجلب غضبه ـ سبحانه ـ ولو أنّ الجندي عصى قائده قويّ البأس، لفعَل هذا القائد الأفاعيل به، فكيف بنا نعصي الله ـ تعالى ـ ونطلب منه رضاه ورحمته ونصْره!

---

(١) حسن بمجموع طُرقه، أخرجه ابن أبي عاصم في «السّنة» من طُرق (٨٢، ٨٣، ٨٤) بتحقيق شيخنا ـ رحمه الله ـ والترمذي وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (١٣٣١)، و«الضعيفة» في التعليق على حديث (١٥١٠).

كيف نقيم على البدع والضلال ونرقب تآلف المسلمين وقوة شوكتهم وربّنا ـ تعالى ـ يقول: ﴿إنّ الله لا يغيِّرُ ما بِقَومٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفُسِهم﴾[1]؟!.

إنَّ وجود البدع يُذهب السنن النبوية كما تقدّم، فهل بوجود البدع والضلال وغياب السنن النبوية يتفق الناس ؟! إنّ هذا لشيء عُجاب!

فإن كُلّ بدعة ضلالة

يبيّن رسول الله ﷺ أنّ المحدثات والبدع طريق الضلال، وهي من ويلات ترْك السنّة التي وصّى بها ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما هو شأن بني إسرائيل حين هلكوا فقد أخلدوا إلى القصص، وتركوا العمل بدينهم، كما في الحديث: «إنّ بني إسرائيل لما هَلكوا قصُّوا(*)»[2].

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» وأبو نعيم في «الحلية» وغيرهما، وهو في «الصحيحة» (١٦٨١).

(*) جاء في «النهاية»: «أي: اتّكلوا على القول وتركوا العمل =

الردّ على من يُقسّم البدعة إلى حسنة وسيئة

قالوا: هناك بدعة حسنة وبدعة سيئة[1].

= فكان ذلك سبب هلاكهم، أو بالعكس، لما هلكوا بترك العمل؛ أخلدوا إلى القصص».

وقال شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ: «وأقول: ومن الممكن أن يُقال: إنّ سبب هلاكهم، اهتمام وُعّاظهم بالقصص والحكايات دون الفقه والعلم النافع الذي يُعرِّف الناس بدينهم؛ فيحملهم ذلك على العمل الصالح، لما فعلوا ذلك هلكوا، وهذا هو شأن كثير من قصّاص زماننا؛ الذين جلُّ كلامهم في وعْظهم حول الإسرائيليات والرقائق والصّوفيات ـ نسأل الله العافية ـ».

(١) قد يقول قائل: لقد قال عمر ـ رضي الله عنه ـ من قبل: «نعمت البدعة هذه».

كما في حديث عبدالرحمن بن عبدٍ القاريِّ قال: «خرجتُ مع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ليلةً في رمضان إلى المسجد، فإذا الناس أوزاع [أي: متفرِّقون.] متفرِّقون يصلّي الرجل لنفسه، ويصلّي الرجل فيصلّي بصلاته الرَّهط [الرهط: ما دون العشرة من الرّجال؛ لا يكون فيهم امرأة. «مختار الصحاح».]

فقال عمر: إنّي أرى لو جمعْتُ هؤلاء على قاريءٍ واحد لكان أمثل، ثمّ عزم فجمَعَهم على أُبيِّ بن كعب، ثمّ خرجتُ معه ليلة أخرى والناس يُصلّون بصلاة قارئهم، قال عمر: نعْمَ البدعةُ هذه، =

. . . . . .

= والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون ـ يريد آخر الليل ـ وكان الناس يقومون أوّله». أخرجه البخاري: ٢٠١٠.

فأقول: إنّما قصَد عمر ـ رضي الله عنه ـ بالبدعة المعنى اللغويّ منها، وهو الأمر الحديث الجديد، الذي لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت معروفاً.

قال في «جامع العلوم والحكم» ـ بشيء من الحذف ـ: «وأمّا ما وقَع في كلام السّلف من استحسان بعض البدع؛ فإنّما ذلك في البدع اللّغويّة، لا الشرعية، فمن ذلك قول عمر ـ رضي الله عنه ـ لمّا جمَع الناس في قيام رمضان على إمامٍ واحد في المسجد، وخرج ورآهم يُصلّون كذلك فقال: نعمت البدعة هذه.

ومراده أنّ هذا الفعل لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت، ولكن له أصولٌ من الشريعة يُرجع إليها، فمنها أنّ النّبيّ ﷺ كان يحثُّ على قيام رمضان ويُرغّب فيه، وكان الناس في زمنه يقومون في المسجد جماعات متفرّقة ووحداناً، وهو ﷺ صلّى بأصحابه في رمضان غير ليلة، ثمّ امتنع من ذلك، مُعلّلاً بأنه خشي أن يُكتب عليهم فيعجزوا عن القيام به، وهذا قد أُمن بعده ﷺ.

ومنها أنه ﷺ أمر باتباع سنّة خلفائه الراشدين، وهذا قد صار من سنّة خلفائه الراشدين، فإنّ الناس اجتمعوا عليه في زمن عمر وعثمان وعليّ». =

. . . . . .

= وقال شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ في «صلاة التراويح» (ص٤٣): «وقول عمر: «نعمت البدعة هذه» لم يقصد به البدعة بمعناها الشرعي الذي هو إحداث شيء في الدين على غير مثال سابق، لما علمت أنّه ـ رضي الله عنه ـ لم يُحدث شيئاً، بل أحيا أكثر من سُنّة نبوية كريمة، وإنما قصد البدعة بمعنى من معانيها اللغوية؛ وهو الأمر الحديث الجديد الذي لم يكن معروفاً قبيل إيجاده، ومما لا شكّ فيه أنّ صلاة التراويح جماعة وراء إمام واحد؛ لم يكن معهوداً ولا معمولاً زمن خلافة أبي بكر وشطراً من خلافة عمر، فهي بهذا الاعتبار حادثة، ولكن بالنظر إلى أنها موافقة لما فعله ﷺ، فهي سُنّة وليست بدعة، وما وصفَها بالحُسن إلا لذلك، وعلى هذا المعنى جرى العلماء المحقّقون في تفسير قول عمر هذا، فقال السبكي ـ عبد الوهّاب ـ في «إشراق المصابيح وفي صلاة التروايح» (١/١٦٨) من «الفتاوى»: «قال ابن عبد البر: لم يسنّ عمر من ذلك إلا ما سنّه رسول الله ﷺ ويحبّه ويرضاه، ولم يمنع من المواظبة إلا خشية أن تفرض على أمّته، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ﷺ، فلمّا علم عمر ذلك من رسول الله ﷺ وعلم أنّ الفرائض لا يُزاد فيها ولا يُنقص منها بعد موته ﷺ؛ أقامها للناس وأحياها وأمَر بها وذلك سَنَةَ أربع عشرة من الهجرة، وذلك شيء ذخَره الله له وفضّله به، ولم يُلهمه أبا بكر، وإن كان أفضل وأشدّ سبقاً إلى كل خير بالجملة، ولكل واحد منهما فضائل بها ليست لصاحبه»، قال السبكي: «ولو لم تكن مطلوبة لكانت بدعة مذمومة كما في «الرغائب» ليلة نصف شعبان، وأوّل جمعة من رجب، فكان =

. . . . . .

= يجب إنكارها، وبطلانه (يعني بطلان إنكار جماعة التراويح) معلوم من الدين بالضرورة » .

وقال العلامة ابن حجر الهيتمي في فتواه ما نصه : « إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، وقتال الترك لما كان مفعولاً بأمره ﷺ لم يكن بدعة، وإن لم يُفعل في عهده، وقول عمر ـ رضي الله عنه ـ في صلاة التراويح : « نعمت البدعة هي » أراد البدعة اللغوية، وهو ما فُعل على غير مثال، كما قال تعالى : ﴿ ما كنتُ بِدْعاً مِن الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٩]، وليست بدعة شرعية، فإنّ البدعة الشرعيّة ضلالة كما قال ﷺ، ومن قسّمَها من العلماء إلى حَسَن وغير حسَن، فإنما قسَّم البدعة اللّغويّة، ومن قال كلّ بدعة ضلالة فمعناه البدعة الشرعيّة، ألا ترى أنّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والتابعين لهم بإحسان؛ أنكروا الأذان لغير الصلوات الخمس كالعيدين، وإن لم يكن فيه نهي؟! وكرهوا استلام الركنين الشاميّين والصلاة عقب السعي بين الصفا والمروة قياساً على الطواف؟! وكذا ما تركه ﷺ مع قيام المقتضي فيكون ترْكه سنّة، وفعله بدعة مذمومة، وخرج بقولنا مع قيام المقتضي في حياته إخراج اليهود وجمْع المصحف، وما تركه لوجود المانع كالاجتماع للتراويح، فإن المقتضي التام يدخل فيه عدم المانع » .

قال شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ في شرح العبارة الأخيرة : « يعني أنّ مفهوم « المقتضي التامّ » يتضمّن عدم وجود المانع، مثاله صلاة التراويح جماعة، فإنّ المقتضي لها كان قائماً، ولكنّ المانع كان =

فأقول: قولوا ـ إن شئتم ـ بدعة حسنة وبدعة قبيحة، ولكن لا تنسوا أنّ الرسول ﷺ قال: «فإنّ كل بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النّار».

لأنّ كلّ الأسماء التي سمّيتموها تدخل في كلمة «كلّ» التي ذكَرها رسول الله ﷺ.

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كلّ بدعة ضلالة وإن رآها النّاس حسنة[1].

أمّا من يقول: ليس هذا أوان النهي عن البدع، والأولى محاربة المذاهب الفكرية المنحرفة عن الدين! فإنه على غير الصواب لعدة أمور:

١ـ إنّ عدم اجتناب الناس البدع يؤدي إلى تضخم البدع وكثرتها وتفاقمها، ونزْع السنن وغيابها.

وهذا يؤدّي إلى انتشار الضلال انتشاراً خطيراً لأنّ كلّ

= موجوداً، وهو خشية الافتراض، فلم يكن المقتضي تامّاً».

(١) صحيح الإسناد كما في «إصلاح المساجد» (ص١٣) لشيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ.

بدعة ضلالة.

٢ـ إنّ تغيير المنكر يجب على المسلم حسب الاستطاعة وعلى مراتب متفاوتة، فمن رأى البدعة ماثلة بين عينيه، وجب عليه أن ينهى عنها، ولا يعفيه من ذلك وجود الإلحاد والشيوعية والماسونيّة وسائر العقائد المنحرفة. وكذلك وجود المذاهب الفاسدة لا يعفي أهل العلم وطلاّبه والدّعاة إلى الله، من أن يُذكّروا الناس بتحريم عقوق الوالدين والكذب والربا، وسائر المحرّمات.

٣ـ إنّ عدم التفقّه بالدين وما دخل عليه من بدع؛ سبب لجلب المذاهب الهدّامة، فمجتمع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أبعد الناس عن البدع وأنقى المجتمعات وأنظفها من هذه المستنقعات الآسنة، ولم يكونوا يومئذٍ مبتلين بهذه الآفات[1].

٤ـ ثمّ هَبْ أننا عرفنا مداخل ومخارج المذاهب الزائفة والفِرق الضالّة، فما المطلوب منا؟

---

(١) ولكن كان في عصرهم ـ كما هو في كل عصر ـ الإلحاد والشرك والكفر والفسوق والعصيان، وأيّدهم الله بنصر من عنده، بالسيف والسّنان والحجّة والبرهان.

أليس بيان ضلالهم يحتاج إلى علم وفِقه وهدى؟

أوليس ينبغي أيضاً أن يكون هذا العلم صحيحاً مُصفّى ممحّصاً؟ ألا نخشى أن يَرُدّ عليهم رادّ بغير علم فيضِلّ ويُضلّ؟!

وهل تُجزىء العواطف ويكفي الحماس للردّ على هؤلاء الضالّين؟!

فالمتفقّه في الدين، أقوى الناس على بيان زيف الفِرق الضالة وانحرافاتهم، وجمْع المسلمين على ما صحّ من عقيدة وفقه وسلوك.

خطَر البدعة

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قال ﷺ: «من أحدَث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ»[1].

وفي رواية لمسلم[2]: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ».

---

(١) أخرجه البخاري: ٢٦٩٧، ومسلم: ١٧١٨.

(٢) برقم: ١٧١٨.

فإرادة التقرّب إلى الله ـ تعالى ـ بغير الكتاب والسّنّة ونهْج السّلف الصالح خطر عظيم.

وهو أيضاً تجرُّؤ وتعدٍّ لحدود الله ـ تعالى ـ.

إنّه لمن السهل على من يختلس درهماً أن يسرق الآف آلاف الدراهم، فإنّ في السرقة تعدّياً لحدود الله، وكذلك شأن المبتدع تهون عليه كبار البدع ـ وربما الشرك بالله ـ إذ مبدأ التنكّب عن السّنّة الصحيحة والرّضا بالبدعة؛ سبيل إلى قَبول كل ضلال وزيغ. كما وقع الشرك في قوم نوح، من اتخاذ أصنام لبعض الرجال الصالحين بعد موتهم، وزيّن لهم الشيطان ذلك ليذكُروهم ويقتدوا بأعمالهم الطيبة، ثمّ أوحى لمن بعدهم أن يعبدوهم من دون الله ـ سبحانه ـ موهماً إياهم أن آباءهم كانوا يفعلون ذلك من قبل.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أمّا ودٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأمّا سواع فكانت لهذيل، وأمّا يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأمّا يعوق فكانت لهمدان. وأمّا نسرٌ فكانت لحمير، لآل ذي

الكلاع؛ أسماء رجال صالحين من قوم نوح. فلمّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسّخ العلم عُبِدت»[1].

وهكذا استدرج الشيطان هؤلاء من باب البدعة، مُلهباً فيهم حماس العبادة والإخلاص للأولياء والصالحين، حتى أنزلهم منازل الشرك والكفران.

ولكنّ القوم لو تدبّروا أمرهم، ومنعوا أنفسهم من اقتراف أمرٍ سوّلته له نفوسهم ـ دون أثارة من علم أو أمارة من هدى ـ لما أرْدَوْا أنفسهم مواطن الكُفران وأحلّوها أماكن الخُسران.

ومثل هذا ما وقع لأولئك القوم الذين جلسوا في المسجد حلقاً ينتظرون الصلاة، في كل حلْقة رجل، وفي أيديهم حصى فيقول: كبِّروا مائة، فيكبّرون مائة، وهكذا يفعلون

(١) أخرجه البخاري: ٤٩٢٠، وذكر الحافظ ـ رحمه الله ـ انقطاعه بيْد أنّ الحديث صحيح لغيره؛ لأنّ له طريقاً أُخرى عن ابن عباس وشاهداً عن تلميذه عكرمة في «تفسير الطبري». أخبرني بذلك شيخنا ـ رحمه الله ـ وأودع هذه الفائدة في التحقيق الثاني من كتاب «تحذير الساجد في اتخاذ القبور مساجد».

تهليلاً وتسبيحاً، فأنكرَ عليهم عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ إنكاراً شديداً.

وهذا ما ثبت عن الحكم بن المبارك عن عمر بن يحيى قال: سمعت أبي يحدِّث عن أبيه قال: كنّا نجلس على باب عبدالله بن مسعود قبل صلاة الغداة، فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد.

فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال: أخرَج إليكم أبو عبدالرحمن بعد؟ قلنا: لا. فجلس معنا حتى خرج.

فلمّا خرج قمنا إليه جميعاً، فقال له أبو موسى: يا أبا عبدالرحمن! إني رأيت في المسجد آنفاً أمراً أنكرتُه، ولم أرَ والحمد لله إلا خيراً.

قال: فما هو؟ فقال: إن عشتَ فستراه. قال: رأيت في المسجد قوماً حلقاً جلوساً ينتظرون الصلاة، في كلّ حلقة رجل، وفي أيديهم حصى، فيقول: كبّروا مائة، فيكبِّرون مائة، فيقول: هلّلوا مائة، فيهلّلون مائة، ويقول: سبّحوا مائة، فيسبّحون مائة.

قال: فماذا قلت لهم؟

قال: ما قلتُ لهم شيئاً انتظار رأيك، أو انتظار أمرك.

قال: أفلا أمرتهم أن يعدّوا سيئاتهم، وضمِنْت لهم أن لا يضيع من حسناتهم؟!

ثم مضى ومضينا معه، حتى أتى حلقة من تلك الحلق، فوقف عليهم، فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟

قالوا: يا أبا عبدالرحمن حصى نعدّ به التكبير والتهليل والتسبيح.

قال: فعدّوا سيئاتكم، فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء. ويْحَكم يا أمة محمّد ما أسرع هلكتكم! هؤلاء صحابة نبيّكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تَبْلَ، وآنيته لم تُكسر؛ والذي نفسي بيده؛ إنكم لعلى ملّة هي أهدى من ملّة محمّد، أو مفتتحو باب ضلالة.

قالوا: والله يا أبا عبدالرحمن ما أردْنا إلا الخير!

قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه! إنّ رسول الله ﷺ حدّثنا أنّ قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيَهم. وايم الله ما أدري لعلّ أكثرهم منكم! ثمّ تولّى عنهم.

فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامّة أولئك الحلق يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج[1].

وهكذا لمّا ذكر القوم ربّهم بغير هُدى أو نور من الكتاب أو السّنة؛ كانت عاقبة أمرهم أن يطاعنوا المسلمين ويقاتلوهم يوم النّهروان مع الخوارج.

وهكذا خرج أولئك عن سبيل المؤمنين، ابتداءً من التسبيح والتهليل والتكبير وهم لا يريدون إلا الخير - بزعمهم - وكذلك ما أرادوا إلا الخير في قتال المسلمين يوم النهروان!

فأيّ خير هذا الذي أبلغهم أن يطاعنوا المسلمين ويسفكوا دماءهم؟!

اقتصار النّبيّ ﷺ في وصيّته في المناهي على اجتناب البدعة فقط

لو تأمّلت النصّ - يرحمك الله - لوجدت أنّ الأوامر أكثر من النواهي، لأنّ من اعتصم بالسّنّة استغنى عن تفصيلات

---

(١) أخرجه الدارمي (١/ ٦٨)، وإسناده صحيح، رجاله كلّهم ثقات وانظر «الردّ على التعقّب الحثيث» (ص٤٧) لشيخنا الألباني - رحمه الله تعالى -.

الضلال.

أمّا الأوامر فهي:

١ـ تقوى الله.

٢ـ السمع والطاعة.

٣ـ التمسك بسنّة النّبيّ ﷺ وسنّة الخلفاء الراشدين.

وأمّا ما يتعلق بالنهي؛ فأمر واحد وهو: «إيّاكم ومحدثات الأمور».

وكأنّ المعنى: اجتنب البدعة والمحدثة؛ تنْجُ وتفُزْ، فالبدعة هي سرّ الضلال والزيغ والخُسران. ومجلبةٌ للشرك والكُفران، فمن أغلق بابها فقد اهتدى بإذن الله، ومن فتَح بابها، فقد فَتَح عليه أبواب الضلال، وحُرِم التوبة، كما في الحديث: «إنّ الله احتجزَ التوبة عن صاحب كلّ بدعة»[1].

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في «تاريخ أصبهان»، والطبراني في «الأوسط» وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (١٦٢٠).

الخاتمة

وأخيراً أقول:

... حقاً إنّ وصيته ﷺ كموعظته؛ وَجِلت منها القلوب وذرفت منها العيون، ... وجِلت منها القلوب الحيّة، وذَرفت منها العيون المخلصة.

وجِلت القلوب لهوانٍ نحياه بعد عزٍّ سمعنا به.

ذرفت العيون للضياع والشتات والتفرّق والاختلاف بعد أن كان السؤدد والمجد والنصر.

جاءت وصيّة المودّع ﷺ تُنقذنا مما نحن فيه من بلاء وكرب وضياع وتفرّق.

وتضمّنت الوصية الأمر بتقوى الله ـ عزّ وجلّ ـ والإخلاص له ـ سبحانه ـ ومحاربة الهوى، والتمّسك بسنّة النّبيّ ﷺ والخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ، وفهم الكتاب والسنّة على نهج الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ واجتناب المحدثات والبدع.

فاستمسك بهذا وعضّ عليه بالنواجذ ـ يرحمك الله ـ تكن من الناجين الفائزين بإذن الله ـ تعالى ـ.

الفهرس

المقدّمة ٥

ماذا بعد موت النّبيّ ﷺ؟ ٩

قيمة الوصيّة ١٢

أوصيكم بتقوى الله ١٧

فما العلاج؟ ٢٤

لا يجوز الاعتماد على القرآن استقلالاً ٣٠

من أخَذ عن الصحابة فقد أخذ عن القرآن الكريم .. ٣٣

أهي سنّة واحدة أم سنّتان؟ ٣٦

ما هو موقفنا من البدع إذا كثُر الاختلاف وعَظُم؟ .. ٣٩

فإنّ كلّ بدعة ضلالة ٤١

الردّ على من يقسّم البدعة إلى حسنة وسيئة ٤٢

خطر البدعة ٤٨

اقتصار النّبيّ ﷺ في وصيّته في المناهي على اجتناب البدعة فقط ٥٣
الخاتمة ٥٥
الفهرس ٥٧